عبد الرزاق الدواي

الاستلاب في الفكر السلفي الجديد بالمغرب

١ ـ القضايا الاساسية للسلفية الجديدة من خلال علال الفاسي (١)

١. ١. ـ ان أهم ما يميز الحركة السلفيةالقديمة فيالمغرب، التي ترجع جذورها الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، عن الحركة السلفية الجديدة ، التي ظهرت خاصة بعد فرض الحماية الاجنبية على المغرب في سنة ١٩١٢ ، والتي تبلورت في حركة سياسية وطنية منظمة بعد حرب الريف (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) ، وخاصة بعد صدور الظهير البربري سنة ١٩٣٠ ، ما يلي :

ـ لقد اقتصرت الحركة الاولى على اصلاح ديني متشدد ، وعلى محاربة الطرق الصوفية . وقد فاد هذه الحركة بعض ملوك المغرب انفسهم مع حاشياتهم من العلماء ورجال الدين ، وذلك امتدادا من عهد السلطان محمد بن عبد الله (توفي سنة ١٧٩٠) الى عهد مولاي الحسن (توفي سنة ١٨٩٤) . وتاثرت السلفية في هذه المرحلة بمبادىء الحركة الوهابية التي نشرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٨٧) في الجزيرة العربية .

ـ أما السلفية الجديدة ، التي ترجع مرحلها الاولى الى بداية وصول اصداء الحركة السلفية في المشرق ، التي قادها محمد عبده تلميذ جمال الدين الافغاني ، الى المغرب على يد شيخ سلفي مغربي يسمى عبد الله السنوسي (توفي سنة ١٩٣١) ، فلم تقتصر على محاربة الشعوذة والطرق الصوفية ، بل امتزجت ، بعد الحرب العالمية الاولى ، بالحركة الوطنية ضد الاحتلال الاجنبي ، واصبحت بعد أن تبنت عديدا من الشعارات السياسية الليبرالية ، ايديولوجية هذه الحركة .

نادت الحركة السلفية الجديدة باصلاح سياسي في اطار فهم مجدد للشريعة الاسلامية ، واستطاعت ، على الاقل في فترة مقاومة الاستعمار ، استقطاب نخبة من الشباب المغربي وتنظيمها سياسيا في حزب الاستقلال . ونذكر من شيوخ هذه الحركة في بدايتها الشيخ ابا شعيب الدكالي (توفي سنة ١٩٣٧) ، والشيخ مولاي العربي العلوي (توفي سنة ١٩٦٣) ، الذي يعتبر الاستاذ علال الفاسي من أبرز تلامذته الذين سيقودون هذه الحركة ويعطونها ابعادا نظرية وسياسية مهمة (٢) .

١. ٢. ـ يقترن اسم علال الفاسي بفكره حاسمة من تطور الفكر السلفي الجديد في المغرب وامتزاجه بالحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي . وقد ظهر علال الفاسي على المسرح السياسي المغربي كمفكر ومصلح سلفي منذ العقد الثالث من هذا القرن . وساهم في طبع الحركة الوطنية المغربية بالطابع الديني ، لانه كسابقيه من السلفيين ، لم يكن يرى في الاستعمار سوى حرب صليبية جديدة تشن ضد المغرب المسلم ، واعتبر « جيش الغزو الفرنسي الذي فرض حمايته على البلاد ، جيشا غايته القضاء على الاسلام واحلال المسيحية مكانه ، لا مجرد غزو استعماري يبحث عن مصالح مادية » (٣) .

ويعكس تفكير علال الفاسي ، وهو في نظرنا نموذج رئيسي وبارز للفكر السلفي الجديد بالمغرب ، بوضوح تام اشكالية الحركة الوطنية الدينية والسياسية (ارتبطت الحركة الوطنية المغربية دائما بالدين ولم تحاول الا نادرا أن تشكل في اطار نظرية عقلانية وعلمانية، ويبرز هذا مدى هيمنة العنصر الديني كايديولوجيا في المغرب) . وقد ساهمت في تكوين تفكير علال الفاسي وتوجيهه نحو الطريق

---

(١) تمت كتابة هذا الفصل بضع شهور قبل وفاة الاستاذ علال الفاسي المفاجئة يوم ١٣ ماي ١٩٧٤ ، وقد كان لهذه الوفاة صدى عميق في مختلف الاوساط المغربية ، الشيء الذي يدل على كبر مكانته وشيوع افكاره في هذه الاوساط ، خاصة تلك التي عاصرت نشاة الحركة الوطنية والنضال ضد الاستعمار . ولم نر أية ضرورة لادخال تعديلات جوهرية على هذا الفصل ، واكتفينا بتغييرات طفيفة في الاسلوب والتعبير .

(٢) للتوسع في موضوع نشاة الحركة السلفية في المغرب راجع : فصل « نشاة الحركة السلفية في المغرب » من كتاب علال الفاسي « حديث المغرب في المشرق » ، القاهرة ، المطبعة العالمية ١٩٥٦ .

ـ أيضا مقال جميل ابو النصر :

« The Salafiya Movement in Morocco » in Social Change : The Colonial Situation . New-York , Edit . John Wiley ,1956 .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٩٠ .

السلفي عدة عوامل ، نذكر منها بالاضافة الى المعطيات التاريخية التي عاشها المغرب في مطلع القرن العشرين ، انتماؤه الاجتماعي الى اسرة محافظة وعالمة من الاسر الفاسية ذات الاصل الاندلسي (٤) . والتعليم الديني الذي تلقاه في جامعة القرويين على بعض مشايخ الحركة السلفية ، واطلاعه على أصداء الحركة السلفية في مصر ، خاصة من خلال مؤلفات محمد عبده ، واخيرا اطلاعه النسبي على الثقافة الغربية .

وتدور الفكرة المحورية لسلفية علال الفاسي حول قضية اساسية هي الدعوة الى تجديد فكري واصلاح اجتماعي في حدود المحافظة على الدين الاصيل واحترام التقاليد الوطنية ، ومعارضة كل نزعات التجديد المنفصلة عن الدين والمتأثرة مباشرة بالمذاهب السياسية الغربية .

١. ٣. ويمكن ابراز الافكار التالية في هذه القضية الاساسية :

أ ـ تهدف السلفية الجديدة كما يمثلها علال الفاسي الى بعث مجد السلف العظيم . يقول علال الفاسي في هذا الصدد : « ... ان الحركة السلفية هي التي تريد الرجوع بالدين الى أصله الاصيل ومصدره النقي لتزيح عنه كل ما الصقته الاجيال به من آثار الجمود والجحود وما غطت به حقائقه الناصعة تأويلات المتطفلين وتحريفات الجاهلين (٥) .

ب ـ وتعمل على ايقاظ الوعي ونشر تجديد فكري في حدود الدين ، يقول علال الفاسي موضحا هذا العنصر : « ... فهي حركة تتطلب فتح الذهن البشري لقبول ما يلقى اليه من جدد وقياسه بمقياس المصلحة العامة ، لارجاع المجد العظيم الذي كان للسلف الصالح في حظيرة الايمان وحظيرة العمل » (٦) .

ج ـ وتعتبر ان الدين الاسلامي يشمل كل الحقائق وبامكانه تجاوز الثقافة الغربية . يقول علال الفاسي : « ... نحن نعتقد ان الاسلام ومعه الوطنية يستطيع أن يمزج كل ما في الفلسفات والنظريات الغربية من حياة وحركة ويتعداها بما هو خالد أبدي » (٧) .

د ـ وترفض فكرة فصل الدين عن الدولة وتدعو الى سيادة التشريع الاسلامي . يقول علال الفاسي موضحا هذه الفكرة : « السلفية الجديدة ترفض بالطبع فكرة لا دينية الدولة ، وبذلك تجعل الحكومة الاسلامية حارسا على الاخلاق والفضيلة في وسط الامة » . ويضيف مؤكدا : « ... وهي ترى أن من الواجب ألا يبتعد المسلمون عن القانون المستمد من الشريعة . وللوصول الى ذلك يجب العمل على أن يصبح منظورا للفكر الاسلامي أصولا وفروعا ، كمادة تشريع مدني عام » (٨) .

هـ ـ وتفسر التأخر الاجتماعي والمظالم الاجتماعية بعدم التطبيق الكامل للدين . يقول علال الفاسي : « ... من العبث أن نعتقد ان ما هو جار في بلادنا من مظالم أو ما نحن متمسكون به من قبائح ، هو اثر من آثار الاسلام (...) ، أن تحريف الاسلام وقع في بلادنا منذ زمن بعيد وان تعليم الدين نفسه أعطي لنا بالكيفية التي ترضي رجال السلطة والمال من ابناء قومنا أولا ثم من الاجانب ثانيا » (٩) .

و ـ وترى ان المشكل الرئيسي الذي ابتلي به المغاربة هو الانحراف الفكري . يقول علال الفاسي موضحا هذه القضية : « .. ان النكبة من هنا بدات ، من الاحتلال الفكري الذي تغلغل في نفوس اجيال من قومنا باسم التقدمية والديموقراطية والاشتراكية دون تعمق لمعاني هذه الكلمات ونفوذ لفحواها » (١٠) .

ان نظرة سريعة لهذه القضايا السلفية كما تعرضها مؤلفات علال الفاسي ، تبرز بوضوح تام المضمون الرئيسي للحركة السلفية الجديدة : انها حركة اصلاح سياسي واجتماعي في اطار بعث وتجديد دينيين . وما سيكشفه تحليلنا من عناصر فلسفية وسياسية منتقاة من هنا وهناك ، انما يعبر عن مظهرها الانتقائي والتوفيقي . وبامكاننا أن نشير ومنذ الان ، انطلاقا من هذه القضايا ، الى بعض مظاهر استلاب الفكر السلفي : رفض النظرة التاريخية وعدم اعتبار العامل التاريخي ، والزعم بأن الافكار القديمة معادلة للافكار الحديثة، وتقديم الظاهرة الدينية كاحدى ظواهر الحياة الاجتماعية على جميع الظواهر الاخرى واعتبارها حاسمة .

٢ ـ حول الارستقراطية الفكرية

٢. ١. ـ تاخذ أولوية الفكر على الوجود ، وبالتالي استقلال الفكر عن الشروط المادية والاجتماعية ، مركزا مهما في سلفية علال الفاسي ، التي يمكن الكشف فيها عن نزعة مثالية ، ولكن لا بالمعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، اذ ان أهمية الفكر وأولويته لا تظهران عنده في المستوى الانطلوجي أو في المستوى المعرفي ، بل في اعتبار الفكر ـ الديني والاخلاقي بصفة رئيسية ـ عنصرا حاسما في كل تطور وفي كل امتياز اجتماعي .

وتمتزج غالبا مع هذا التقدير الكبير للفكر (الديني والاخلاقي) افكار وآراء حديثة مقتبسة من هنا وهناك . مثل الدعوة الى الايمان بالعقل والدفاع عن حرية الفكر والايمان بالتطور ، ولكن بكيفية سطحية توفيقية . ويعد كتاب علال الفاسي « النقد الذاتي » ، مثالا بارزا لهذا المزج الانتقائي ، وتكفي نظرة سريعة الى عناوين فصوله للاحاطة بمدى غزارة استعمال المقولات الفكرية الحديثة للعرض الخارجي

---

(٤) ولد علال الفاسي في فاس سنة ١٩١٠ ، والتحق بجامعة القرويين كطالب سنة ١٩٢٦ . وعمل في تنظيمات الحركة الوطنية الى سنة ١٩٣٧ ، حيث نفي الى الكابون ، وبقي في المنفى الى سنة ١٩٤٦ . واقام في القاهرة من سنة ١٩٤٧ الى سنة ١٩٥٦ ، ثم عاد الى المغرب ، بعد أن أصبح مستقلا ، وانتخب رئيسا لحزب الاستقلال . وعين وزيرا للشؤون الاسلامية من سنة ١٩٦١ الى سنة ١٩٦٣ ، وبعد ذلك اضطر حزبه أن ينضم الى المعارضة . وشغل منذ تلك الفترة منصب الاستاذية في كلية الحقوق ودار الحديث الحسنية . وتوفي في ١٣ ماي ١٩٧٤ .

(٥) علال الفاسي ، « حديث المغرب في المشرق » ، القاهرة ، المطبعة العالمية ١٩٥٦ ، ص ٣ .

(٦) علال الفاسي ، « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، تطوان ـ دار الطباعة المغربية ـ ١٩٥٦ ، ص ١٣٥ .

(٧) علال الفاسي ، « عقيدة وجهاد » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٠ ، ص ٨٢ . ماذا يقصد علال الفاسي هنا بالحركة الوطنية ؟ ان الحركة الوطنية في رايه هي حركة الدفاع ضد الغزو الاجنبي المسيحي ، والتمسك بالتقاليد الاصيلة والدعوة الى اصلاح اجتماعي على ضوء الماضي المجيد . وواضح هنا خلو هذه النظرة من الاصلاح الاجتماعي الجذري لالغاء التفاوت الاجتماعي اللاطبيعي بين المواطنين .

(٨) علال الفاسي « الحركات الاستقلالية » ... صفحات ١٣٦ ـ ١٣٧

(٩) علال الفاسي ، « النقد الذاتي » ، بغداد وبيروت ، دار الكشاف ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥١ .

(١٠) علال الفاسي ، « دائما مع الشعب » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٧ ، ص ٢٢ .

للافكار مع بقاء العمق والمضمون وعظا دينيا بحتا (١١) .

ورغم ذلك يمكن القول ان الفكرة المهيمنة في النقد الذاتي هي مسلمة ان الفكر هو اسمى ما في الانسان ، وان لا شيء يمكن اصلاحه بدون تقويم الانحراف الفكري ، وان سيادة الارستقراطية الفكرية هي شيء ضروري لانها وحدها القادرة على انارة طريق دعوة العودة الى الاصالة ، وان الفكر هو مقياس التمييز الاجتماعي بين الناس . وما هو هذا الفكر السامي ؟ انه « الفكر الذي يستطيع التحرر من القيود التي تحيط به من كل الجهات ، ويسمو فوق آفاق النظر العالمي ليشرف على كل شيء من المحل الارفع » (١٢) .

وليس من الصعب الانتقال من مسلمة الفكر السامي الى النتائج المترتبة عنها : فالفكر الديني والاخلاقي هو العامل الحاسم في كل تطور ، والمفكرون هم الممتازون لانهم رواد كل اصلاح ، اذ من الواضح انه ما دام كل تأخر اجتماعي ، في اطار اشكالية علال الفاسي ، « ناشئا » عن انحراف فكري متفاوت المستويات ، يصبح الدور الرئيسي في كل اصلاح اجتماعي مناطا بالفئة التي يطلق عليها علال الفاسي «الطبقة المتنورة» ، التي تضم نخبة مفكري الامة وعلماءها (١٣) .

٢. ٢. ـ ويجب ان تتميز هذه الطبقة المتنورة بارستقراطية الفكر ، لانه في نظر علال الفاسي ، مهما كانت الديمقراطية حسنة ، فان « الارستقراطية شيء ضروري لتوجيه الامة » (ص ٤٦) . وواضح ان لا علاقة لمعنى « ارستقراطية » التي تعني حكم وسيادة النخبة الممتازة المفكرة والغنية والمرموقة اجتماعيا ، بالمضمون التاريخي للدعوة السلفية ، الذي هو قبل كل شيء تجديد واصلاح في اطار الدين . ولعل قصد علال الفاسي هو التعبير عن « أهل الحل والعقد » عند القدماء ، وهم العلماء والفقهاء وكل من يملك سلطة معنوية او اقتصادية او قبلية . وفي سائر الاحوال ، فان استعمال كلمة ارستقراطية موح جدا وكاشف للصبغة الطبقية لسلفية علال الفاسي : انها في مرحلتها الاولى كانت ايديولوجية الارستقراطية المغربية الدينية والعلمية والسياسية قبل ان تتحد حولها في فترة التناقض الاستعماري مختلف الطبقات الاجتماعية ، وان تتبناها بصفة تكتيكية البورجوازية الحاكمة في ما بعد الاستقلال .

ويتحدث علال الفاسي عن هذه الطبقة المتنورة ، التي يبدو انها ورثت الفكر فطريا ، باسلوب افلاطوني محلق ، يقول (ص ٤٧) : « والمفكرون هم الجديرون بالفكر وان ادعى الناس مشاركتهم فيه لانه لكل واحد الحق في ان ينظر ويفكر ويبدي ما شاء من الاراء والنظريات، ولكن النتيجة في النهاية هي انتصار هؤلاء الممتازين الذين يحكم لهم الفكر نفسه باستحقاقهم وحدهم له » .

ومن شروط ارستقراطية الفكر ، ومن المؤهلات الاولى المطلوبة من هذه الفئة المتنورة الممتازة اجتماعيا لانها ممتازة « فكريا » ان تكون قادرة على عدم التأثر بمنطق الشارع ، لان اخطر ما يواجهه هؤلاء المفكرون الممتازون هو منطق الشارع ، وان تستطيع التحرر من واقعية الحياة ، لكي تفكر في حرية وتنفذ الى أعماق الاشياء .

ويلخص علال الفاسي هذه الشروط : « ... واذا اردنا ان نكون من نفوسنا هذه الطبقة الرفيعة من جهة الفكر ، وجب علينا ان نتعود التحرر تدريجيا من منطق الشوارع والترفع قليلا عن التأثر بواقعية الحياة » (ص ٤٩) . وبذلك يحدد بعض عناصر ايديولوجية الارستقراطية المغربية الدينية والسياسية .

٢. ٣. ـ ومن البديهي الا يرى علال الفاسي من منظار الارستقراطية الفكرية و « المحل الارفع » ، من كل مظاهر البؤس الاجتماعي الصارخة : الاستغلال والفقر والجهل والجوع والمرض ، سوى مظاهر التدهور الاخلاقي والانحراف الفكري ، وكأن الغزو الاستعماري قديمه وحديثه ـ وهو السبب الرئيسي الذي يفسر به التأخر الاجتماعي ـ قد استهدف بصفة خاصة افساد الروح والفكر اكثر مما استهدف استغلال البلاد ثروات وسكانا .

وهكذا تتحول ، في اطار اشكالية علال الفاسي ، ازمة المجتمع المغربي الى ازمة قيم ! وتلك نظرة لا يختص بها تفكيره وحده ، فهي سمة بارزة في الفكر السلفي بصفة عامة ، الذي يقلص المشاكل الاجتماعية في مجال أخلاقي مجرد ، ويلحق الظاهرة الاجتماعية بالظاهرة الاخلاقية (١٤) .

انها نظرة غير جدلية للواقع الاجتماعي ، تجهل وتتجاهل الجذور الحقيقية للمشاكل الاجتماعية ، وبالتالي تقترح حلولا ايديولوجية عقيمة لتدارك التأخر : تقويم الاخلاق ، الرجوع الى الاصالة ، محاربة الانحراف الفكري ، باختصار ، حصر الاصلاح في مثال الانسان لا في الانسان الواقعي ، أي « ... يجب ألا يكون المثال هو الآدمي نفسه (المواطن المغربي ؟) بل هو ما يصل اليه هذا الآدمي من غاية عليا » (ص ١٠٥) .

وهي أيضا نظرة انتهازية تخفي مصالح طبقية ، لانها موجهة بصفة خاصة الى جماهير الشعب ، التي من العبث الزعم بانها تعاني فقط أزمة أخلاقية ، بينما يدعم « الموجهون » بكيفية مستمرة مصالحهم المادية بمختلف الوسائل .

٣ ـ حول « عقلانية » سلفية علال الفاسي

٣. ١. ـ يحرص علال الفاسي كثيرا على ان تظهر سلفيته الجديدة في كساء عقلاني لابراز جدتها ومسايرتها للعصر . ولكن هذا الحرص لا يؤدي الا الى تعميق وابراز الايديولوجية في تفكيره . فدعوته الى انتصار التفكير العقلاني نظل طافية فوق سطح مذهبه كشيء شاذ ، لا تنفذ الى عمق القضايا الاساسية ولا تتحول الى منهج للتحليل .

ماذا يقصد مثلا عندما يقول (ص ٦٥ من النقد الذاتي) انه من الواجب أن « ينتصر العقل في بلادنا ويصبح المسيطر على جميع ميادين الحياة ، وتكون له الرقابة على أخلاقنا وسلوكنا » ؟ هل يقصد انتصار المبادىء العقلانية التي نودي بها في القرن الثامن والتاسع عشر في المجتمعات الغربية ؟ ان ذلك لمن المستبعد جدا ، لان من جملة تلك المبادىء مثلا مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وهو مبدأ يناقض صراحة مبادىء الدعوة السلفية (راجع ، د ، ١. ٣.) .

ويبدو ان علال الفاسي يجهل ان التفكير العقلاني الذي يدعو اليه هو من شعارات الثورات البرجوازية الاوروبية ، اذ ينسب الى البرجوازية نمط تفكير لا ينطبق عليها . يقول مثلا (ص ٢٠) : « يجب

---

(١١) نذكر من هذه العناوين مثلا : « التفكير شموليا » ، ارستقراطية التفكير » ، « حرية التفكير » ، « التحرر الفكري » ، « التفكير بالمثال » الخ ...

(١٢) علال الفاسي ، « النقد الذاتي » ، ص ٤٦ .

(١٣) يجب فهم كلمة « عالم » في اطارها الديني ، ولا تخفى اهمية الدور الايديولوجي الذي تقوم به هذه الفئة ـ التي كان علال الفاسي من أبرز أعضائها ـ في المجتمع المغربي .

(14) J. - P . Charnay , « Courants réformateurs dans la Pensée Islami que contemporaine » , in Normes et Valeurs dans l'Islam contemporain , ouvrage collectif , Paris , Edit . Payot 1966 . pp . 226 - 227 .

أن نتحرر من ذهنية الطبقة البرجوازية التي تخشى من كل جديد وتخاف من كل تفكير في اي تطور يطرأ عليها ، فان هذه الطبقة قضت على نفسها بهذه الروح ، وتكاد تقضي علينا جميعا اذا لم نتعلم كيف ننعتق من قيودها » . فاي طبقة برجوازية يقصد ؟ اذا كان يقصد البرجوازية الغربية فالمعروف انها أول من نادى بالعقلانية . واذا كان يقصد البرجوازية المغربية فمن آي منبر يتحدث هو نفسه ؟ هناك اذن التباس في استعمال مفهوم « العقل » وعبارة «طبقة برجوازية» ، وهو التباس يعكس انتقائية تفكير علال الفاسي .

ونعتقد اننا لن نحيد كثيرا عن الصواب اذا اوّلنا عبارة « انتصار العقل » بمعنى انتصار العقلية التقليدية : فالطبقة المفكرة التي يعتمد عليها علال الفاسي في نشر مبادىء العقل هي طبقة علماء الامة ، كما سبق أن اشرنا الى ذلك . وفي هذه الحالة سيعني انتصار العقل سيادة عقلية هؤلاء العلماء المحافظة .

ويجب أن نفهم نفس الشيء من كلام علال الفاسي عندما يقول (ص ٦٥) : « ... علينا مقاومة الجمود والرجعية والتقاليد البالية وتبليغ رسالة العقل الصحيح الى الامة » ، وكذلك عندما يقول ان « أصلنا الاساسي هو الايمان بالحرية والاعتزاز بالعقل الذي لا يبلى » (ص ٩٩) . فليست رسالة العقل الصحيح هنا هي مبادىء العقلانية البرجوازية ، لان هذه المبادىء تتناقض جذريا مع القضايا السلفية . ومن ناحية أخرى ، فهذه المبادىء ، رغم احتوائها على وعي زائف ايديولوجي ، تعتبر رفضا وابتعادا عن العصور الوسطى بينما الدعوة السلفية هي أساسا دعوة لاحياء مجد السلف العظيم !

وفضلا عن ذلك ، فان رسالة « العقل الصحيح » حسب مفهوم علال الفاسي ، لا تعطي أهمية للتطور التاريخي ولا لمحركاته الاساسية . انها رسالة العقل التوفيقي الذي يأمل في ادماج الماضي القديم في الحاضر المعاصر بطريقة سحرية متخطية الزمن وعوامل التطور ، ويسعى الى المحافظة على وحدة الامة في اطار التناقضات والتمايزات الاجتماعية . ان من شروط العقل الصحيح « أن يكون مساعدا على بقاء هذه الامة ومتابعة سيرها الى الامام ، وكل فكرة تعمل على حل رابطتها وتمزيق وحدتها والقضاء على كيانها (...) فهي فكرة لا يمكن ولا يجوز أن تجد لها محلا من قبولنا واعتبارنا » (ص ١٠١ من النقد الذاتي) .

٣. ٢. ــ ويشيد علال الفاسي ، في اطار نشر الفكر العقلاني ، بحرية التفكير ، ويرقى بمفهوم « الفكر الحر » الى درجة تجعل منه قيمة مطلقة : اذ بالنسبة اليه يجب التحرر من كل سيطرة غير سيطرة الفكر المؤمن بالحرية (ص ٧٦) . ويعتبر الوجود من غير فكر حر عدما (ص ٩٩) ، والخطر على الدولة يكمن في ضياع الفكر الحر اكثر مما يكمن في الازمات الاقتصادية (ص ١٨٤) .

ان « حرية الفكر » التي يتحدث عنها علال الفاسي تحمل في مضمونها التباسا وتناقضا : فاذا كان يقصد بها حرية الفكر في الانتقاد فان هذا الانتقاد يظل في اطر معلق وخارجا عن الشروط الاجتماعية والتاريخية ولا يمس جوهر المشاكل . يقول مثلا : « يجب أن نحرر الفكر العام من خرافات الماضي ومضللات العصر الحديث » (ص ٧٦) وليس هناك مانع في أن نتفق معه عندما تكون الغاية من الانتقاد هي « تخليصنا من خرافات الماضي » ولكن يجب أن نتريث قليلا قبل اصدار حكم ما عندما يتعلق الامر بالتحرر من « مضللات العصر الحديث » !

فما هو مقياس التضليل هنا ؟ ان مضللات العصر الحديث هي كل ما يخالف القضايا السلفية ويتعارض مع التراث القديم ولو كان علما . وبذلك يصبح مقياس الحكم هو الماضي نفسه أو على الاقل تصور خاص لهذا الماضي ، تصور مثالي تنتزع منه صورة المستقبل المامول . فكيف يمكن التحرر من خرافات الماضي على ضوء ماض يحمل هو نفسه قسطا كبيرا من الخرافة ؟ وكيف يمكن الحكم انطلاقا من هذا الماضي على أن نظريات العصر الحديث مضللة ؟ ما دام الفكر « الحر » مقيدا بالانتقاد في حدود التمسك بقيم الماضي فاي معنى يبقى آذن لهذه الحرية ! وما جدوى الانتقاد ؟

ان حرية الفكر عند علال الفاسي ، فضلا عن محتواها الايديولوجي (ما هي الفئة الاجتماعية التي ستتمتع بها عمليا) ، وفضلا عن مثاليتها (عدم ارتباطها بالشروط الاجتماعية والتاريخية لتطور الفكر) ، هي حرية الانتقاد المقيد ، انتقاد كل شيء بشرط عدم التخلي عن التراث الماضي ، انتقاد لا يهدف الى تصفية الحساب مع الماضي والتحرر منه وفهمه على ضوء معطيات الحاضر ، بل الى العودة اليه والتطابق معه واحيائه من جديد !

٣. ٣. ــ ويبرز موقف علال الفاسي من الثقافة الغربية (يجب أن نفهم هنا من الثقافة الغربية بصفة خاصة النظريات والمبادىء « الهدامة » و « الافكار المستوردة » التي تهدد الاصالة ووحدة الامة) ، مظهرا آخر لتناقض عقلانيته . ان مفهوم الثقافة الغربية يرتبط عنده بالغزو الاستعماري المسيحي . وبما ان هدف هذا الغزو كان المسّ بالقيم الروحية اكثر مما قصد الى استغلال الثروات الانسانية والطبيعية للبلاد ، فان رفض هذه الثقافة سيعلن ، لا باسم التحرر الاجتماعي والاقتصادي ، بل باسم الدفاع والمحافظة على القيم والتراث .

وبالرغم من ان هذه هي السمة البارزة في تفكير علال الفاسي، فان موقفه يعتريه الاضطراب والتناقض . كيف يجب أن نفهم مثلا دعوته الى ضرورة الايمان بالعقل وبحرية التفكير بل بارستقراطية التفكير هذه وكلها شعارات تيارات معينة من الثقافة الغربية ؟ انه يقتبس من هذه الثقافة التي يرفضها ، بل كثيرا ما يلجأ الى مقولات هذه الثقافة للدفاع العاطفي عن التراث والاصالة مع بقاء رؤيته لمجتمعه دينية وأخلاقية . ولم يخف مرارا اعجابه بما يعتبره سببا لتقدم الغرب : الايمان بالتطور وبالعلم وبحرية الفكر ، ولكنه لم يجعل من « مثيرات » هذا الاعجاب أسلوبا ومنهجا لتحليل مجتمعه .

ليست الثقافة الغربية ، في سائر الاحوال ، بالنسبة اليه سوى خليط من تاريخ الغرب وأفكاره وثوراته المختلفة وفلسفاتها (١٥) حببه الينا جهلنا وتأخرنا ، لان المغلوب يتأثر دائما بالغالب ويعلل قهره هو باشياء يحسب انها غير موجودة الا عند الفاتحين الاقوياء (١٦) .

وواضح ان علال الفاسي لا يكاد يميز في هذه الثقافة التي يرفضها بين النواحي العلمية الايجابية التي أصبحت مكتسبات انسانية ، وبين ما هو من رواسب الاستعمار قديمه وحديثه . وعندما يسمح علال الفاسي بالاخذ من هذه الثقافة (١٧) ، يحرص على ألا يتم ذلك الا في حدود عدم المسّ بالقيم الروحية ، يقول في

---

(١٥) علال الفاسي ، « دفاع عن الشريعة » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٦ ، ص ٦٤ .

(١٦) علال الفاسي « النقد الذاتي ... » ص ٢٥٠ .

(١٧) عبارة « يسمح » هنا موجهة خاصة الى عموم الشعب ، اما بالنسبة لابناء الطبقة التي يمثلها علال الفاسي فان الاقبال على هذه الثقافة يعدّ امتيازا . يقول محمد عابد الجابري في هذا الصدد : « ... ومن غريب المفارقات ان هذه النخبة الاجتماعية التي قادت الحركة الوطنية أو انتسبت اليها ، كانت بمقدار ما تحتج على لا قومية التعليم في المغرب ، بمقدار ما تدفع بابنائها نحو المدارس الاوروبية » . راجع : « أضواء على مشكل التعليم بالمغرب » ، الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ١٩٧٤ ، ص ٤٥ .

هذا الصدد : « ... من حقنا أن نختار ولكن في دائرة الدين ومقاييسه » (دفاع عن الشريعة ، ص ٤٤) ذلك لان التاخر لا يمكن أن يتجاوز بقبول مبدا « الالينة » الدينية (١٨) .

وهنا يتعقد المشكل اكثر ، فتعيين ما يوافق وما يعارض الدين سيظل دائما من اختصاص « علماء » الامة ، ومن الصعب الاعتقاد بان هؤلاء سيؤدون هذه المهمة بدوافع دينية صرفة وفي تجرد عن التاثر بالمناخ السياسي السائد .

وواضح أن البديل الذي يقترحه علال الفاسي (على من ؟) للثقافة الغربية هو العودة الى الاصول والتراث ، بكل ما يكتنف هذه العودة من أوهام ووعي زائف . ان الخلاص من الغزو الثقافي الغربي يكمن في الاستجابة للدعوة السلفية ، أي في الاستجابة « لنور حركة تهدي الى الحق وتدل على السبيل الاقوم ، لها أنصار في كل جهة والسنة ناطقة في كل اقليم » (دفاع عن الشريعة ، ص ٦٣) .

ولا يخلو احيانا انتقاد علال الفاسي للثقافة الغربية من ملاحظات مهمة لو تم تحتو على وعي زائف ، فهو محق عندما يعتبر الثقافة الغربية امتيازا مقصورا على فئة معينة من المغاربة (هل يمكن أن نستثني أبناء طبقته من هذه الفئة ؟) أي فئة « ... رجالنا الذين هم أهل الحل والعقد (...) الذن لا يرون امكانية اللحاق بالغرب الا اذا قبلنا طرق عيشهم على علاتها ... وأساليب تفكيرهم برمتها » (دفاع عن الشريعة ، صفحات ٦٣ ـ ٦٤) .

ولكن طبيعة المنطلقات السلفية تمنعه من أن يرى أبعد من هذه الملاحظة ، كأن يدرك مثلا أن هذه الفئة التي يقصدها ، انما تدعم بهذا الاختيار امتيازاتها ومصالحها ، وليس الامر بالنسبة اليها مجرد حب لتقليد الغرب ! وربما لا ترى هذه الفئة اطلاقا ضررا في ان ينتقدها مفكر مثل علال الفاسي ، لان انتقاده يدعم ضمنيا وصراحة موقفها ، ما دام لا يدعو الى تعميم ايجابيات هذه الثقافة بقدر ما يدعو الى التخلي عنها والعودة الى الاصول ، أي الى الفكر التقليدي . وماذا يضير هذه الفئة اذا هي أرضت اليوم علال الفاسي في تبني سياسة احياء التراث كايديولوجية لتدعيم امتيازاتها وسيطرتها تقنيا وعلميا ؟ (١٩) .

٤ ـ التناقض في الفكر السلفي عند علال الفاسي (٢٠)

٤. ١. ـ يؤكد علال الفاسي مرارا ، في جلّ كتبه ، على ضرورة الايمان بالتطور واعتبار التحول الاجتماعي ظاهرة طبيعية . ويفسر احيانا كثيرة تاخر المجتمع المغربي بعدم ايمانه وفهمه لقوانين التطور والتجديد المتواصل ، تلك العناصر التي يتاسف على توفرها في العقلية الغربية فقط . يقول (ص ١٦٧ من النقد ...) : « اذا كان للغرب من فضل فهو كونه دائم الحركة ولا يرضى بما نال ، ان روحه التي تنقصنا هي الايمان بالتطور الفكري الدائب واعتبار ما كان في عهد سابق ليس من الضروري أن يستمر في العهود الاخرى » .

ولذلك يدعو الى ضرورة التجديد الجذري وعدم الخضوع المطلق لتحكم الماضي لان ما قرره عصر سابق في نظره لا يجب أن يتحكم في ما يريده العصر الموالي ، فالتجديد لا يعني دائما الترميم ، بل يعني حتى الاستبدال ، وان كان لا يقصد منه عدم المتابعة .

وتلك « خواطر » قيمة ، ولكنها مهما بدت ثورية ، ليست من ثوابت تفكير علال الفاسي ، ولا أصداء لها في مضمون وعمق سلفيته الجديدة ، بل يبدو بالاحرى انها موجهة ـ في مجال جدالي ـ الى مخاطب معين هو الرجعية التقليدية المحافظة (الطرقية) ، ولا يلبث ان يناقضها ضمنيا وصراحة عندما يكون المخاطب من دعاة التفتح على الغرب أو من حاملي « الافكار المفسدة » .

ويمكن أن نقول ، اذا ما تجاوزنا هذه الخواطر ، ان فهم علال الفاسي للتطور والتحول الاجتماعي يتم من خلال منظار قيمي وأخلاقي اكثر مما يتحقق في اطار موضوعي وتاريخي . فعوامل التحول الاجتماعي ، عندما لا تكون ميتافيزيقية ـ صراع الخير والشر ـ (٢١) تقلص كلها في العوامل الخارجية . وتقاس أهمية التحول بمعياري التقدم والتاخر بالنسبة الى قيمة مطلقة هي ماضي السلف .

٤. ٢. ـ ونجد في « النقد الذاتي » (ص ١٠٤) نصا مهما يكشف لنا عن بعض خصائص هذا الفهم :

« ان التحول من طبائع الشعوب واخلاق الكتل كلها حتى كتل الجمادات . ولكن هذا التحول يقع أحيانا في شكل حركة جيولوجية لا تشتمل على شيء من المتابعة ولا من التقدم . انه يعرض لبعض الكتل الارضية أن تتحول من حالة تراب الى حجارة ، وقد تكون هذه الحجارة رخاما أو مرمرا ، ولكن تحولها يفقدها وجودها الاصلي كتراب ، دون ان تصبح في حالتها الثانية جزءا مما كانت عليه . انها هي ولكنها غيرها على كل حال .

فكذلك يقع لبعض الكتل البشرية التي تختلط بغيرها دون ان تعرف كيف تستفيد منهم ، انها تصاب بمسخ كلي على الشكل الجيولوجي الذي قلنا ، وقد تتحول الى امة اخرى أكثر حضارة ومدنية مما كانت عليه ، ولكنها تفقد وجودها السابق . (...) ومعنى هذا انها تنعدم وتصبح أنقاضا لكيان جديد ، مثلها مثل القصر الذي ينقض بناؤه ويصبح ركاما ، وقد يشاد في موضعه قصر آخر ، ولكنه لن يكون هو القصر المتهدم » .

يوضح هذا النص « ايمان » علال الفاسي بان التحول سنة طبيعية ، وبامكاننا ان نبرز فيه مفهومين للتحول الاجتماعي ، الاول جذري مرفوض ، والثاني نسبي ومحافظ مقبول .

أ ـ يتم التحول الذي يقبله علال الفاسي ، بكيفية تدريجية ونتيجة لعوامل داخلية غير محددة بدقة ، ويعتبر هذا النوع من التحول تقدما ، لانه يحتفظ بالعناصر القديمة ، بغض النظر عن ، وبدون تحديد نوعية هذا الاحتفاظ : تواجد ، تراتب أم تجاوز جدلي ؟ لان المهم في نظره هو ان يكون « الاصل » وماضي السلف حاضرين بصفة دائمة . وهذا معنى تجريدي ولاتاريخي للتحول يتجاهل التناقض والعوامل الاجتماعية المحركة .

---

(١٨) علال الفاسي « محاضرتان عن مهمة علماء الاسلام » ، الرباط ، مطبعة الامنية ١٩٧٣ ، ص ٤٤ . يقصد بالالينة الدينية الاستلاب الناتج عن الايمان ببعض « الفلسفات الهدامة » .

(١٩) يقول الاستاذ الجابري في هذا الصدد : « ... اما اليوم (يونيه ١٩٧٣) فاننا امام حركة واسعة تقوم بها الاوساط الرسمية من أجل (بعث التعليم الاصلي) وتوسيع قواعده الابتدائية والثانوية وتوفير كل ما يلزم من أجل نموه وازدهاره» « أضواء على مشكل التعليم » ، ص ٧٥ .

(٢٠) نقصد بهذا العنوان في نفس الوقت ابراز التناقض في هذا الفكر وانتقاد مفهومه عن التناقض والتحول الاجتماعي .

(٢١) يقول علال الفاسي في هذا الاطار : « ... واذا كان هناك من عقدة تفاعل دائم فهي كفاح الخير والشر على هذه الارض وصراع انصارهما وتطور الذهن الانساني في تفسيرهما » . النقد الذاتي ... ص ١٨٤ .

ب ـ اما التحول الذي يرفضه ويعتبره كارثة ومسخا فهو الذي يتم بكيفية « مفاجئة » و « دائما » نتيجة لعوامل خارجية (كالتدخل الاجنبي) ، انه التحول الجذري المؤدي الى نفي « الماضي » واقامة بنيات جديدة على انقاضه . ولا يرى علال الفاسي في هذا النوع من التحول اية ايجابية رغم تاكيده على طابعه الكيفي : الانتقال من كيف الى كيف آخر ، من تراب الى رخام مثلا . بل ربما كان هذا الطابع هو ما يخشاه بالضبط ، لانه يعني الابتعاد عن الاصل والحقيقة الاولى .

واضح ان هذه النظرة الى التحول الاجتماعي غير جدلية ، لانها تفصل بين العوامل الداخلية (مع تجاهل الاهم منها) (٢٢) ، وبين العوامل الخارجية ، كما تستعمل فيها المقولات الجدلية استعمالات مبهمة لا تدل على فهم واضح للتناقض الجدلي . فمن المعروف ان ليس هناك تحول اجتماعي يتخلى عن العناصر القديمة (الاصالة ؟) بصفة مطلقة ، ولم يقل بهذا « هيجل » فبالاحرى ماركس .

ان كل تحول اجتماعي يحتوي على العناصر القديمة ، انما هناك كيفيتان لاحتواء هذه العناصر : احتواؤها جدليا اي استيعابها في كلية كيفية جديدة ، أو احتواؤها تراتبيا ، اي في كلية تتواجد فيها عناصر متفارقة تواجدا سطحيا ، وهذا هو اتجاه فهم علال الفاسي للتحول .

٤. ٣. ـ يكمن التحول الايجابي اذن ، في منظور سلفية علال الفاسي ، في العودة الى الماضي وبعثه ، وهنا يصبح الماضي مقولة زمانية اساسية في تفكيره ، متحكمة في الحاضر والمستقبل معا وربما احتوت هذه المقولة من الوهم اكثر من الواقع فضلا عن انها تفرغ أجزاء الزمان الاخرى من مدلولاتها .

يحول علال الفاسي الماضي الى قيمة مطلقة يحيطها بهالة من التمجيد الاكيد انها لم تكن لهذا الماضي حتى عندما كان حاضرا . وفي هذه الكيفية لفهم الزمان رفض للصيرورة وتفكير خارج التاريخ : انها بحث عاطفي وراء زمان ضائع ، وهروب عن مواجهة مشاكل الحاضر في مسؤولية . لقد تحول الماضي في فكره الى قيمة اسطورية واقية، تخفي التاخر والعجز .

ويعتبر العودة الى الماضي تحررا ، يقول مثلا : « ... هذا الرجوع الى الماضي الذي يظهر في شكل تقهقر الى الوراء هو نفسه تحرر كبير» (٢٣) . ولا يتردد في اطلاق قضايا عامة تحتاج الى الاثبات التاريخي ، في نظره مثلا ، لم تقم « ثورة مفيدة في بلد ما الا سبقتها دعوة للرجوع الى الماضي البعيد » (٢٤) . ونتساءل هنا عن الماضي « البعيد » الذي أرادت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) العودة اليه ، وثورة ١٩١٧ ؟ بل ، لكي نظل قريبين من الفهم السلفي، ما هو الماضي البعيد الذي استهدف الاسلام ـ باعتباره ثورة اجتماعية ـ العودة اليه ؟

ويعتقد علال الفاسي ، ان الموقف من مسالة الماضي ، هو من جملة ما لا يقبله في الماركسية ، يقول : « ... وهذه هي النقطة التي لم ينتبه اليها ماركس، فزعم انه يجب اهمال الماضي برمته » (٢٥)

هل يمكن ان ينسب هذا الى ماركس حقا ؟ ان النصوص الماركسية حول اهمية الماضي كثيرة ، نذكر من بينها مثلا : « ان البشر هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكنهم لا يفعلون ذلك بكيفية حرة وفي شروط يختارونها بانفسهم ، ولكن في شروط موروثة ومستمدة من الماضي . ان ثقل كل الاجيال الفانية يوجد كله في أدمغة الاحياء » (٢٦)

٤. ٤. ـ يبرز التحليل السابق ، في نفس الوقت ، التناقض في التفكير السلفي عند علال الفاسي (اشتماله على عناصر وافكار متناقضة) ، وعدم فهم واضح للتناقض الجدلي كعامل في التطور التاريخي والتحول الاجتماعي . وفضلا عن ذلك فانه لا يخلو من وعي زائف ، يكمن مثلا في الاعتقاد بالتعبير عن المصلحة العامة ، في حين انه فكر انتقائي محدود بالتعبير عن مصلحة طبقة معينة .

ان مظاهر الاستلاب الايديولوجي اعطاء الطابع الشمولي لشيء جزئي ، وادعاء التعبير عن مصالح كل الفئات الاجتماعية ، اي تعميم نظرة جزئية وتقديم رغبات فردية او رغبات فئة اجتماعية معينة على انها رغبات للمجتمع بأسره . وتعتبر هذه النظرة خاصية من خصائص تفكير علال الفاسي : يحول مشاعر ذاتية وجزئية ـ بغض النظر عن انها قد تكون صادقة من الناحية العاطفية ـ الى نظرية كلية والى منهج للفهم والتحليل .

يرى مثلا ، ان من واجب الفكر السلفي ان يعبر عن المصلحة العامة وعن الرغبات الحقيقية للشعب ، لكي لا يترك مسالة توجيه الرأي العام خاضعة للصدفة او « للعقائد الهدامة والافكار المفسدة » . وكيف يتم له ذلك ؟ اذا عرف كيف يستخرج رغبات الشعب عن طريق معرفته « العميقة » لهذا الشعب . ولا تتطلب هذه المعرفة العميقة دراسة ومنهجا علميين ، بقدر ما تتطلب قيام المفكر السلفي بعملية تامل داخلي لاعماقه ليكتشف عن طريق المماثلة رغبات الشعب . يقول علال الفاسي : « ... اننا نستخرجها (رغبات الشعب) بمعرفتنا بقرارة نفسه واعماق ضميره (...) ، وهذا بالطبع يتوقف قبل كل شيء على معرفتنا بانفسنا » (٢٧) .

ولا يخفي ما ينطوي عليه هذا الموقف من امكانية الخداع الذاتي ، واحتمال للاسقاط : اعتبار مطالب ورغبات فئة اجتماعية معينة كرغبات للشعب قاطبة .

٥. ١. ـ ماذا يمكن ان نقول في ختام تحليلنا للاستلاب في الفكر السلفي من خلال علال الفاسي ؟ لقد لاحظنا ان هذا الفكر كان في بدايته تعبيرا ايديولوجيا صاغته الارستقراطية المغربية الدينية والعلمية والسياسية امام التدخل الاستعماري واحتلاله ، اي نسقا من الافكار الدفاعية لصد الهجوم الغربي . ولذلك طغت عليه الرغبة في رد هذا الهجوم المسيحي ، اكثر مما اتسم بمحاولة جدية لفهم العوامل الداخلية والخارجية التي ادت اليه ، فاهتم بالبحث عن الحجج التبريرية اكثر مما اهتم بالتحليل .

وتدريجيا اتخذ هذا الفكر مظهرا رومانسيا واصبح غاية في حد ذاته : اصبح تفكيرا دفاعيا مبررا لعدم التفكير . ومن هنا اصل طابعه الانتقائي والتوفيقي ، اذ لم يستطع ان يدافع عن نفسه وان يعبر عنها الا من خلال فكر آخر ـ فكر الخصم ـ ذي قوة ونفوذ

---

(٢٢) لا يؤمن علال الفاسي بالصراع الطبقي كعامل للتحول . يقول : « ... واما التطاحن الذي يفرق بين عناصر الامة بصفة نهائية (...) ، فهو ما لا يجد مكانا في عقيدتنا وفي افكارنا الوطنية التي تعمل على تقارب الطبقات بل على حذف الفوارق الاجتماعية بقدر ما تسمح به طبيعة الكون والحركة » (عقيدة وجهاد ، ص ٨٩) .

(٢٣) علال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ١٣٥ .

(٢٤) نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

(٢٥) نفس المصدر ، ص ٨٠ .

(26) K . Marx , Le 18 Brumaire de Louis Bonaparte . op . cit . p . 13 .

(٢٧) علال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ٧٨ .

وجاذبية . فلجا الى مقولاته واساليبه والفاظه لكي ينتقده ، فكان هذا الانتقاد سطحيا معبرا عن موقف العاجز الذي يتلقف الافكار من كل الاتجاهات لمحاولة الدفاع عن النفس .

وفي خضم هذه الانتقائية الدفاعية ، افتقد هذا الفكر النظرة الموضوعية والتاريخية الى الاحداث والمشاكل الاجتماعية ، فتجاهل التناقض الجدلي والمحركات الاساسية للتحول الاجتماعي ، وقلص ازمة المجتمع المغربي في ازمة قيم وانحراف فكري . وعندما لم يستطع هذا الفكر ان يعي ويفهم لماذا تقف الامة التي ينتمي اليها ، التي بلغت في الماضي اوجا عظيما من الحضارة ، منهارة ومشدوهة امام قوة الغرب وتفوقه ، لم يجد امامه الا الماضي الذهبي عزاء وملجا من ثقل الحاضر ومسؤولياته .

لقد حمل الفكر السلفي تناقضاته منذ ولادته لانه اهمل من حسابه التاريخ وعوامل التطور الاساسية ، فاصبح عاجزا عن ان يكون نظرية جذرية للتحرر الاجتماعي . ومن الغريب ان علال الفاسي لاحظ هذا العجز منذ سنوات عديدة ولكنه لم يعمل شيئا من أجل تجاوزه . فقد تبدت له حدود نجاح وفشل الحركة السلفية سنة ١٩٥٢ ، أي السنة التي سبقت الازمة المغربية .

فقد رأى ، في محاضرة القاها في القاهرة عن حركة الاصلاح الديني في المغرب ، ان الحركة قد نجحت في اثارة الوعي وجعلت العالم الاسلامي كله اليوم منتبها الى ضرورة الخروج من الهوة التي تردى فيها منذ ازمان طويلة ولكنها قد فشلت في أن تتحول الى نظرية فعالة للعمل . يقول في هذا الصدد : « يمكن ان نقول ان السلفية فشلت كلما خرجت من طور البحث النظري الى طور الحركة العملية » (٢٨) .

لقد ابدى علال الفاسي هذه الملاحظات النقدية منذ حوالي عشرين سنة ، ولكن هذا لم يدفعه الى التساؤل عن اسباب هذا الفشل . وحتى لو افترضنا انه طرح على نفسه هذا السؤال فلن يكون جوابه خارجا عن السلفية ذاتها ، سيقول : ان فشل الحركة السلفية لا يرجع الى مبادئها بقدر ما يرجع الى ان هذه المبادىء لم تطبق بكاملها (ص ٨٠ من النقد الذاتي) . ولكن لماذا لم تطبق بكاملها ؟

ولم يتجاوز الفكر السلفي كما يمثله علال الفاسي ، في عهد الاستقلال ، أي بعد زوال التناقض الاستعماري ـ في شكله القديم ـ مرحلة الانتقائية ، بل لقد حوّل هذه الانتقائية الى مذهب انعكس في اختياراته الاقتصادية والسياسية والثقافية ، فاصبحت انتقائية واعية ومقصودة تشكل وحدة مع ايديولوجية طبقية نشيطة وفعالة .

ومن الصعب علينا الا نربط الفكر السلفي عند علال الفاسي ، كما يبعث اليوم من جديد في المغرب ـ احيانا مع اصوله الطرقية نفسها ـ بمصالح طبقة اجتماعية معينة (٢٩) . لقد اصبح هذا الفكر معبرا عن وجهة نظر الارستقراطية البرجوازية المغربية . وما « النقد الذاتي » الذي مارسه علال الفاسي سوى النقد الذي يمكن ان توجهه هذه الطبقة لحركة تطورها الذاتي ، وما ادعاؤه التعبير عن المصلحة العامة سوى ادعاء ايديولوجي .

ليس لدينا أحسن من هذه العبارة لعلال الفاسي لختام هذا الفصل : « ان من حقوق الانسان الا يفرض جيل اليوم نظامه وأعماله على جيل الغد » (٣٠) .

---

(٢٨) علال الفاسي « حديث المغرب في المشرق » ص ٢٧ .

(٢٩) نعارض هنا ما يقوله عبد الله العروي (الايديولوجيا العربية.. ص ٤٥) بأن علال الفاسي ليس ناطقا ايديولوجيا لطبقة معينة ولكنه يمثل فقط حقبة من ثقافتنا الحديثة .

(٣٠ علال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ١٦٧ .

صدر حديثا :

الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال غسان كنفاني

تاليف الدكتورة رضوى عاشور

دار الآداب